شرح

القواعد الأربع

لشيخ الإسلام المجدد

الشيخ محمد بن عبد الوهاب

- رحمه الله تعالى-

فضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

[أشرطة مفرغة]

١٤٢٨/١٢/٢١-٢٠-١٩

اعتنى بها
سالم بن محمد الجزائري

النسخة الإلكترونية الأولى

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الدرس الأول (١٤٢٨/١٢/١٩)

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال شيخ الإسلام الإمام المجدد رحمه الله تَعَالىٰ في القواعد الأربع:

[المتن]

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أسألُ اللهَ الكريم ربّ العرش العظيم أنْ يتولاّكَ في الدنيا والآخرة، وأنْ يجعلكَ مبارَكًا أينما كنتَ، وأن يجعلَكَ ممّن: إذا أُعطيَ شَكَرَ، وإذا ابتُلي صبرَ، وإذا أذنبَ استغفر. فإنّ هؤلاء الثلاث عنوان السعادة.

[الشرح]

الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله تَعَالىٰ – كان ناصحا أعظم نصيحة للناس في بيان التوحيد الذي خُلقوا لأجله وأُوجدوا لتحقيقه، والتحذير من الشِّرك بالله – عز وجل – الذي هو أعظم الآثام وأكبر المحرَّمات، وتنوّعت – رحمه الله تَعَالىٰ– مصنفاته في بيان التوحيد وتقريره، والتحذير من الشر ك وإبطاله وبيان فساده وبطلان شبه أهله، فألَّف في ذلك مؤلفات كثيرة نصحا للأمة وبيانا للنّاس وأعذارا وإنذارا، فكان رحمه الله ناصحا معلما مربيا متمسكا بكتاب الله –جل وعلا– وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وكان رحمه الله في بياناته وتقريراته للتوحيد والسنة ينطلق في ذلك كله من كتاب الله جل وعلا سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سائرا في ذلك على سَنن الصحابة الكرام وتابعيهم بإحسان، فهو ماض على الطريق وعلى الأثر في الاقتفاء والاتباع في كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا كانت كتبه كلها قائمة على الدليل؛ قال الله قال رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يأتي بشيء من قبل نفسه، أو ينشئ أمرا تكلفا من عنده حاشاه وحاشا أئمة المسلمين وعلماء السنة أن يكونوا كذلك؛ بل كان رحمه الله في تقريراته وتقعيداته منطلقا في ذلك كله من كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد تنوّعت مصنفاته رحمه الله تَعَالىٰ في بيان التوحيد وتقريره،

والتأصيل له، وجمع الشواهد والدلائل عليه من كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان من عنايته رحمه الله بهٰذا الباب العظيم هٰذه الرسالة صغيرة الحجم الكبيرة الفائدة، التي لا يستغني عنها كل مسلم، فهي بحق رسالة عظيمة وكتيِّب قيم في باب هو أعظم الأبواب، وقد جمع في هٰذه الرسالة قواعد أربع جمعها رحمه الله وذكر أدلَّتها من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان من ضبط هٰذه القواعد وفهمها لا يلتبس عليه الأمر ولا تشتبه عليه الأمور، ولا تنطلي عليه أضاليل أهل الضلال وأباطيل أهل الباطل، فهي قواعد أربع كبار عظيمة لا غنى لأيّ مسلم عنها في باب معرفة التوحيد والشرك، والتمييز بين الحق الذي هو التوحيد والباطل الذي هو الشِّرك، وأصبح معرفة التمييز بين التوحيد والشرك ضرورة ملحة ولاسيما في هٰذه الأزمنة المتأخرة التي لبِّس على على كثير من الناس في مفهوم التوحيد، وأُدخلت عليهم صورا من الشرك وأبوابا منهم وليست مضادة للتوحيد ولا منافية له، فمن أعظم الضرورات وأشد الحاجات التي ينبغي على كل مسلم ومسلة أن يعنى بها أن يعرف هٰذه القواعد العظيمة الأربعة الكبار التي قررها رحمه الله تَعَالىٰ ليميز بها المسلم بين الشرك والتوحيد، وحتى يكون المسلم على بصيرة في دينه وعلى بينة من أمره، وعلى نور من كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وعلى سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وقد بدأ هٰذه الرسالة كعادته رحمه الله تَعَالىٰ في كتبه عموما ورسائله بالدعاء لمن يطّلع على كتابه ويقرأ رسالته، ويدعو رحمه الله بدعوات عظيمة؛ دعوات جامعة تجمع للمسلم خيري الدنيا والآخرة هٰذا أيضا من نصحه رحمه الله تَعَالىٰ ومن شفقته على الناس عموما، ليتبصروا في دينهم وليعرفوا الحق الذي خُلقوا من أجله وليكونوا على حذر من الضلال والباطل.

بدأ هٰذه الرسالة القواعد الأربع بقوله: (**بسم الله الرحمٰن الرحيم**) وهٰذه كلمة يُبدأ بها في الدروس والمقالات والكتب، وهي مفتاح يبدأ به طلبا لعون الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وتوفيقه وتسديده، فقولك: (**بسم الله الرحمٰن الرحيم**) هٰذه كلمة استعانة، تبدأ كلامك أو كتابك أو دخولك أو خروجك إلى غير ذلك مما بسملت من أجله طالبا بذلك عون الله جل وعلا، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: الباء في (**بسم الله**) باء الاستعانة أي أبدأ مستعينا بالله وطالبا عونه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ متيمنا طالبا البركة بذكر اسمه جل وعلا.

وقولك: (**بسم الله**) الجار والمجرور هنا متعلق بمحذوف -محذوف مقدر- يقدر له فعل بحسب حال الفاعل، إن كان خروجا فيقدر أخرج بسم الله، إن كان دخولا أدخل باسم الله، وإن كان كتابة أكتب باسم الله، وإن كان قراءة أقرأ باسم الله، ففي البسملة الجار والمجرور متعلق بمحذوف مقدر يقدر بحسب حال الفاعل.

قال: (**بسم الله الرحمٰن الرحيم**)، وفي (**بسم الله الرحمٰن الرحيم**) اجتمعت ثلاث أسماء حسنى لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، أولها اسمه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ (**الله**) معناه كما قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: أي ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. فاسمه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ (الله) يدل على أوصاف الكمال ونعوت الجلال وأوصاف العظمة التي استحق بها تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ أن يؤله وأن يعبد وأن يخضع له ويجل جل وعلا، ودالٌّ أيضا على العبودية التي وصف العبد وأن الواجب على العبد أن يكون ذليلا له خاضعا لجنابه منكسرا بين يديه قائما بأمره جل وعلا، محققا العبودية التي خُلق لأجلها وجد وأوجد لتحقيقها، و (**الرحمٰن الرحيم**) اسمان دالان على ثبوت الرحمة صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، واسمه جل وعلا (الرحمٰن) يدل على صفة الرحمة القائمة به سبحانه، واسمه (الرحيم) دال على تعلقها بالمرحومين كما قال جل وعلا: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)**﴾[الأحزاب:٤٣]، فهٰذه أسماء ثلاثة عظيمة جاءت في البسملة، وبدأ بها رحمه الله تَعَالىٰ مؤلفه تأسيا بكتاب الله جل وعلا، وتأسيا بنبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في مراسلاته صلوات الله وسلامه عليه، وتأسيا بأئمة المسلمين وعلماء الإسلام في أول الزمان وآخره.

قال: (**أسألُ اللهَ الكريم ربّ العرش العظيم أنْ يتولاّكَ في الدنيا والآخرة**)، (**أسألُ اللهَ الكريم**) أي أطلب منه جل وعلا، (الكريم) اسم من أسماء الله جل وعلا وهو دال على صفة الكرم، والكرم هٰذه الصفة تعني اجتماع صفات الخير وكوامل الصفات وجوامع النعوت، ولهٰذا فإن هٰذا الاسم من الأسماء التي تدل على أوصاف عظيمة لا على معنى مفرد، ونعوت جليلة كثيرة ثابتة للرب الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، قال: (**أسألُ اللهَ الكريم ربّ العرش العظيم**) ذكر هنا ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، والربوبية هي الملك والخلق والتصرف والتدبير في هٰذه الكائنات، وخص بالذكر هنا العرش ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ للعرش؛ لأنه أعظم المخلوقات وأكبرها، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ وصف عرشه بالعظمة في القرآن الكريم، وصفه بالكرم ووصفه بالمجد، وجاءت أيضا أوصاف كثيرة له في سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فذكر المصنف رحمه الله تَعَالىٰ هنا ربوبية الله عز وجل للعرش، خصه بالذكر؛ لأنه أكبر المخلوقات وأعظمها.

ويأتي في بعض الأذكار والدعوات الثابتة عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذكر ربوبية الله للعرش ويخصه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بالذكر، كما في الذكر الذي يقال عند الكرب: "لا إله إلا الله العظيم لا إله إلا الله رب العرش الكريم." وكما أيضا في الدعاء الذي يقال عند النوم: "اللهم رب السمٰوات السبع ورب العرش العظيم، ربنا وربنا كل شيء ومليكه، فالق الحب والنوى، مُنزل التوراة والقرآن والإنجيل" إلى

آخر الدعاء، فيأتي مثل ذلك في دعوات النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

والعرش مخلوق من مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ العظيمة، وهو أكبر المخلوقات وأعظم المخلوقات، ولهذا لما أراد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في تسبيحه لله أن يذكر أثقل الأوزان، ذكر العرش قال: ((**سبحان الله وبحمده عدد خلقه وزنة عرشه**)) [١] ذكر عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ زنة العرش؛ لأن العرش أثقل المخلوقات وأكبر المخلوقات وأعظم المخلوقات، فالعرش مخلوق لله جل وعلا خلقه سبحانه وأوجده من العدم، وشاء جل وعلا أن يستوي عليه، أن يعلو ويرتفع عليه علوا وارتفاعا يليق بجلاله وكماله وعظمته – سبحانه– كما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه في مواضع من القرآن، في قوله جل وعلا: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾[٢] وقوله جل وعلا: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[طه:٥]، وكم هو جميل بالمؤمن في دعائه لله جل علا مناجاته له أن يذكر عظيمة ربه وكماله وكبريائه، وعندما تناجي الله عز وجل وتدعوه متذكرا ربوبيته ولاسيما ربوبيته جل وعلا للعرش العظيم، وتذكر عظمة هٰذا المخلوق وكبره وضآلة المخلوقات الأخرى بالنسبة إليه، مما يعينك على ذكر عظمة الله جل وعلا وكبريائه، وأن هٰذا الكون الذي تحت العرش ودون العرش كله مسخر ومدبر لله جل وعلا، يصرِّفه كيف يشاء، ويقضي فيه بما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ فوق عرشه المجيد عليٌّ عليه يقضي بما يشاء، ويحكم بما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، كل يوم هو في شأن، يحيي ويميت، ويعز ويذل ويغني ويقني، ويُضحك ويُبكي، ويُصح ويُمرض.. إلى غير ذلك من الأمور التي هي تصريفه وتدبيره لمملكته جل وعلا، لا شريك له في التدبير، ولا شريك له في التسخير والقضاء، الأمر أمره، والقضاء قضاؤه، والحكم حكمه جل وعلا، فيذكر العبد عظمة الله وجلاله وكماله وربوبيته، ويجعل ذلك وسيلة له إلى الله جل وعلا بين يدي عدائه في مناجاته لله ومناداته له جل وعلا، ولهذا قال رحمه الله: (**أسألُ اللهَ الكريم ربّ العرش العظيم**)، يحتمل قوله: (**العظيم**) أن المراد بالعظيم صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، ويحتمل أن يكون صفة للعرش، وكل منهما حق، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ العظيم، ومن أسمائه الحسنى تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ العظيم، وقد ختمت أعظم أية في القرآن الكريم، وهي آية الكرسي بهٰذا الاسم، وهو (العلي العظيم)، فالعظيم اسم من أسماء الله، والعظيم صفة من صفات العرش، فيحتمل هٰذا ويحتمل ذاك.

(**أسألُ اللهَ الكريم ربّ العرش العظيم**) فيكون (العظيم) صفة لله جل وعلا، (**أسألُ اللهَ الكريم ربّ**

---

[١] **مسلم**: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، حديث رقم (٢٧٢٦).

[٢] وردت هذه الآية في القرآن في ستّ مواضع: الأعراف:٥٤، يونس:٣، الرعد:٢، الفرقان:٥٩، السجدة:٤، الحديد:٤.

العرش العظيم) ويكون (العظيم) بهذا صفة للعرش.

قال: (**أنْ يتولاّكَ في الدنيا والآخرة**) هٰذا هو المطلوب، وما قبله وسيلة بين يديه، المطلوب قال: (**أنْ يتولاّكَ في الدنيا والآخرة**) أي أن يكون وليا لك في دنياك وأخراك، قال تَعَالىٰ: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ**﴾[البقرة:٢٥٧]، (**أنْ يتولاّكَ**) أي بحفظه وتوفيقه وتسديده، وعونه لك على طاعته وإخراجه لك من الظلمات إلى النور، وتوصيلك في دينك والحق الذي خلقت لأجله ووجدت لتحقيقه، وأن يثبتك على هٰذا الحق وأن يعيذك من الضلال وسبل الغواية كل ذلك تناوله قوله: (**أسألُ اللهَ ... أنْ يتولاّكَ في الدنيا**)، فتولي الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في الدنيا بحفظه في هٰذه الدنيا من مضلات الفتن وتثبيته لعبده على الاستقامة والحق والهدى، وعلى صراط الله المستقيم، إلى أن يتوفاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وهو عنه راض.

قال: (**والآخرة**) (**أنْ يتولاّكَ في الدنيا والآخرة**) وتولي العبد وتولي الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ لعبده في الآخرة يكون بحفظه من أهوالها وشدائدها، ويكون بإنقاذه وإنجائه من النار ودخولها، وتوفيقه له بدخول الجنة والفوز بنعيمها، وأن يكرمه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ بأعظم نعمة وأجل منة وهي أن يرى الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وهي أكبر المنن، فكل ذلك داخل في قوله رحمه الله تَعَالىٰ: (**والآخرة**) يعني أن يتولاك تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في الآخرة بأن يكون وليا لك بالحفظ والتسديد والعون إلى غير ذلك،

قال: (**وأنْ يجعلكَ مباركًا أينما كنتَ**) وهٰذه دعوة من أعظم الدعوات وأجلها وأفخمها وأكبرها، قد قال الله تَعَالىٰ في ذكر نبيه عيسىٰ: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾[مريم:٣١]، ولا يكون الإنسان مباركا أينما كان إلا إذا كان في مجالسه كلها صالحا مصلحا، صالحا في نفسه ليس منه شر ولا أذى ولا إفساد ولا نحو ذلك، وأن يكون مصلحا بحيث أنه في كل مجلس من مجالسه يسمع منه الخير، تُسمع منه الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والتنبيه النافع.. ونحو ذلك، ولهذا ذكر ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه وأظنه ذكر ذلك في بعض كتبه في الرسالة التبوكية، قال: لا يكون المرء مباركا أينما كان إلا إذا كان في كل مجلس يجلسه يكون فيه نفع للناس وبهذا يكون مباركا أينما كان. أي مكان حل وفي أي موضع نزل، فهو في أي مكان يُنتفع به، مثله كمثل الغيث أينما حلّ نزل، قال: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ وهٰذا يتناول أن يكون العبد مباركا أيضا في نفسه وفي ماله ورزقه وعمله وبيته وحاله وشؤونه، قال: (**وأنْ يجعلكَ مباركًا أينما كنتَ**).

(**وأن يجعلَكَ ممّن: إذا أُعطيَ شَكَرَ، وإذا ابتُلي صبَرَ، وإذا أذنبَ استغفر**) دعا بهٰذه الأمور الثلاثة

العظيمة التي جمعت الخير كله والسعادة برمتها.

ولهذا قال رحمه الله في خاتمة هٰذه الدعوة مبينا مكانتها وشأنها، قال: (**فإنّ هؤلاء الثلاث عنوان السعادة.**) أي أن السعادة اجتمعت في هٰذه الثلاث، فإذا وجدت هٰذه الأمور الثلاثة في العبد فإن السعادة اجتمعت فيه وتحققت فيه ونالها بأعلى صورها وأبهى حللها، والسعادة من أعظم المطالع التي يسعى الناس لتحقيقها وتُعقد المؤتمرات والنّدوات والمجالس وتكتب المؤلفات لطلب السعادة، وليس أحد من الناس إلا ويريد لنفسه السعادة حتى الذين يباشرون الفساد ويتعاطون أمور الانحراف يظنون أنها تجلب لهم السعادة، وأن السعادة تتحقق لهم بتلك المسالك التي هي في الحقيقة مهالك لهم ومضار لهم في دنياهم وأخراهم، فالسعادة لا تنال إلا بتحقيق هٰذه الأوصاف الثلاث التي ذكرها رحمه الله في هذه الدعوة المباركة العظيمة، لا تنال إلا بهٰذه الأوصاف الثلاث: الشكر والصبر والاستغفار، فهٰذه الأمور الثلاثة إذا اجتمعت في العبد اجتمعت فيه السعادة وتحققت له.

قال: (**أسألُ اللهَ ... أن يجعلَكَ ممّن: إذا أُعطيَ شَكَرَ، وإذا ابتُلي صبَرَ، وإذا أذنبَ استغفر.**)

ولو تأملت تجد أن أحوال العبد في هٰذه الحياة الدنيا لا تخرج عن هٰذه الأمور الثلاث:

- إما أن كون مبتلى بمصيبة.
- أو يكون ممتن عليه بنعمة ومنة.
- أو أن يكون واقعا في ذنب.

لا تخرج أحوال العبد في هٰذه الأمور الثلاثة إما مبتلى بمصيبة، أو منعم عليه بنعمة ومما يدخل في النعمة نعمة الدين عي أعظم النعم بأن يوفق للصلاة والصيام وطلب العلم وبر الوالدين وصلة الأرحام هٰذه أعظم النعم، أو أن يكون قد وقع في ذنب، فالعبد لا يخرج في حياته عن هٰذه الأمور الثلاثة، إما أن يبتلى بمصاب أو ينعم عليه بنعمة أو واقعا بذنب، لا يخرج عن هٰذه الأمور الثلاثة.

والواجب على العبد أن يجاهد نفسه مجاهدة تامة على أن يكون عند البلاء من الصابرين، وعند النم من الشاكرين للمنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، وعند وقوعه في الذنوب من المستغفرين، فإذا كان كذلك قد جمع لنفسه الخير كله، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: ((**عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن**))[1] هكذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، بدأ أول الحديث بقوله: ((**عجبا لأمر المؤمن**)) وختم

([1]) **مسلم**: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، حديث رقم (٢٩٩٩).

الحديث بقوله: ((**وذلك لا يكون إلا للمؤمن**)) فالمؤمن عند المصيبة صابر، وعند النعمة شاكر، فالمصائب يفوز بثواب الصابرين، وفي النعم يفوز بثواب الشاكرين، فهو فائز في كلا الحالين، في مصائبه فائز وفي نعمه فائز، في مصائبه فائز بثواب الصابرين، وفي ثوابه فائز بثواب الشاكرين لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

والأمر الثالث قال: (**وإذا أذنبَ استغفر**) أي إذا وقع في الذنب بادر إلى الاستغفار إلى الله -جل وعلا-، هو يعلم أن الله عز وجل يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات ولا يتعاظمه -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- ذنب من أن يغفره، ولهذا لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله مهما كان ذنبه ومهما عظم جرمه فإنه يبادر بالأوبة والرجوع إلى الله جل وعلا، وقد ذكر النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قصة العبد الذي أذنب ذنبا ثم قال: أستغفر الله. قال: ((**أذنب عبدي وعلم أن له ربا يغفر الذنب فغفرت له**))[1] ثم عاد العبد للذنب ثانية واستغفر قال: ((**أذنب عبدي وعلم أن له ربا يغفر الذنب فغفرت له**)) وتكررت من العبد ثم قال في تمام الحديث: ((**اعمل ما شئت فقد غفرت لك**)) أي ما دمت على هٰذه الحال ملازما للاستغفار مجاهدا نفسك على أن لا تقع في المعصية وأن لا تقع في الخطيئة وإذا بدر منك زلل أو وقعت في خطأ بادرت إلى الاستغفار، ما دمت على هٰذه الحال فأنت مغفور لك، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**))[2] ابن آدم ليس معصوما، ابن آدم خطاء؛ لكن له رب يغفر سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ ويتجاوز ويصفح عز وجل، ولهذا إذن وقع العبد في ذنب وجرته إليه نفسه الضعيفة ودعاه إليه الشيطان، أو جره إليه قرناء السوء وخلطاء الفساد، أو أغوته نفسه للوقوع فيه، عليه أن يعلم فورا أن له ربا يغفر الذنب ويتجاوز ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)**﴾[الزمر:٥٣]، فلا يزال العبد بخير ما دام يعلم أن له ربا يغفر ويتجاوز ويصفح سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، وأما ابن آدم فضعيف وكثير الخطأ والزلل ودواعي الخطأ كثيرة جدا، ليس العجب ممن هلك كيف هلك ولكن العجب ممن نجا كيف نجا، الأمور التي تجر الإنسان إلى الخطأ كثيرة جدا؛ لكن لا يزال العبد بخير ما دام يعلم أن له ربا يغفر، ولهذا لا يزال العبد يجاهد نفسه على البعد عن الذنوب وعن الوقوع فيها، وإذا انفلتت نفسه ووقع في زلة أو وقع في

([1]) **البخاري**: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾...، حديث رقم (٧٥٠٧).

مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكرت الذنوب والتوبة، حديث رقم (٢٧٥٨).

([2]) **سنن الترمذي**: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٤٩)، حديث رقم (٢٤٩٩).

سنن ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، حديث رقم (٤٢٥١).

قال الشيخ الألباني: **حسن**.

خطيئة بادر إلى الاستغفار، ومن عظيم حبّ الله جل وعلا للاستغفار والمستغفرين قال عز وجل في الحديث القدسي: ((**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقومٍ يذنبون ويستغفرون الله جل وعلا فيغفر لهم**))،[١] ولهذا ربما كان بعض الذنوب على الإنسان خير له؛ لأنها تفتح عليه باب ندم عظيم وباب استغفار كثير ربما بدون هذا الذنب يقل استغفاره؛ لكنه يقع في ذنب وزلة ثم يقع في قلبه حياء عظيم من الله عز وجل ومراقبة لله وألم وندم على ما وقع فيه من ذنب وخطيئة فيكثر على الإنسان الاستغفار كثيرة ربما لا تكثر على لسانه لولا أنه ما وقع في هذا الذنب الذي ابتلي به، ولهذا لا يزال العبد بخير ما دام أنه إذا أذنب استغفر، ولهذا لاحظ الدعوة قال: (**وأن يجعلَكَ ممّن: إذا أُعطيَ شَكَرَ، وإذا ابتُلي صبَرَ، وإذا أذنبَ استغفر**) والذنب لابد منه، ابن آدم لابد أن يقع في الذنب، وذنوب الإنسان كثيرة؛ لكن ينبغي أن يكون العبد كثير الاستغفار، ينبغي أن يكون العبد كثير الاستغفار، وقد كان سيد ولد آدم أكثر الناس استغفارا، وليس في عباد الله أكثر استغفارا من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ ولكنه مع ذلك كله أكثر الناس استغفارا حتى قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما رأيت أحدا من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول أستغفر الله وأتوب إليه. وقد رأى أبو هريرة عبّاد الصحابة وخيار الأمة وأكثر الناس استغفارا وما رأى في ذلك الجيل أكثر من النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ملازمة للاستغفار، فكان عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ملازما للاستغفار في حياته كلها، حتى أنه ختم حياته كلها بالاستغفار كما جاء في حديث أم المؤمنين عائشة قالت: مات -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بين صدري ونحري وهو يقول: ((**اللهم اغفر لي، وألحقني بالرفيق الأعلى**))[٢] هذه من آخر كلماته التي فارق عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بها الدنيا.

الشاهد أن العبد تتحقق له السعادة إذا اجتمعت فيه هذه الخصال العظيمة ألا وهي: الصبر والشكر والاستغفار، ولعل في هذه الدعوة العظيمة المباركة التي دعا بها المصنف رحمه الله لك أن تكون فاتحة باب لك أن تعتني بهذه الأمور الثلاثة التي عنوان السعادة: الصبر والشكر والاستغفار، بحيث تكون مجاهدا لنفسك على تحقيق هذه الأمور الثلاثة، إذا كان صبرك ضعيفا فاجتهد في تنميته واسأل الله جل وعلا المعونة على ذلك، وإذا كان شكرك قليلا فاجتهد أيضا في تكثيره وتقويته واسأل الله عز وجل المعونة

---

[١] **مسلم**: كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، حديث رقم (٢٧٤٩).

[٢] **البخاري**: كتاب المغازي، باب مرض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفاته، حديث رقم (٤٤٤٠).

مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها، حديث رقم (٢٤٤٤).

وليس فيهما ((الأعلى)). وهي في سنن الترمذي، حديث رقم (٣٤٩٦).

على ذلك، ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾[النمل:١٩]، لا تكون شاكرا لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ إذا إلا ذا أعانك الله ويسر لك، وأن تعني بالاستغفار وأن تكثر من الاستغفار وأن يكون استغفارك في مجالسك وفي تنقلاتك وفي حركاتك استغفارا كثيرا، فهذه كما أنها دعوة فهي لفتة من المصنف رحمه الله إلى العناية بهذه الأمور الثلاثة التي هي أبواب السعادة، وتكون عنايتك بها من جهتين:

الجهة الأولى أن تدعو لنفسك بهذا الدعاء؛ أن ييسر الله لك عز وجل هذه الأمور الثلاثة التي هي عنوان السعادة.

والجهة الثانية أن تُتبع الدعاء بفعل الأسباب؛ وذلك بأن تجاهد نفسك على أن تكون من الذين ابتلوا صبروا وإذا أنعم عليهم شكروا وإذا أذنبوا استغفروا.

[المتن]

اعلمْ أرشدكَ اللهُ لطاعته: أنّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم: أن تعبد الله مخلصًا له الدين كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

فإذا عرفت أنّ الله خلقك لعبادته فاعلم: أنّ العبادة لا تسمّى عبادة إلا مع التوحيد، كما أنّ الصلاة لا تسمّى صلاةً إلا مع الطّهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدتْ كالحَدَث إذا دخل في الطهارة.

فإذا عرفتَ أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار عرفتَ أنّ أهمّ ما عليك: معرفة ذلك، لعلّ الله أن يخلّصَك من هٰذه الشَّبَكة، وهي الشرك بالله الذي قال الله تَعَالىٰ فيه: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾[1]، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه.

[الشرح]

قال رحمه الله تَعَالىٰ: (**اعلمْ أرشدكَ اللهُ لطاعته**)؛ (**اعلمْ**) هٰذه الكلمة يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة والأمور الكبار، وقد تكرر مجيئها في كتاب الله عز وجل في التنبيه على الأمور العظام من ذلكم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ﴾[محمد:١٩]، فهٰذه يؤتى بها لشد الانتباه ولفت الانتباه

[1] سورة: النساء (٤٨، ١١٦).

واستدعاء القلوب للإصغاء ووعي هٰذه الأمور العظيمة الكبيرة، قال: (**اعلمْ**).

قال: (**أرشدكَ اللهُ لطاعته**) وهنا دعا بهٰذه الدعوة العظيمة بعد أن دعا إلى الانتباه لما سيقال وما سيبينه رحمه الله تَعَالىٰ دعا بهٰذه الدعوة العظيمة (**أرشدكَ اللهُ لطاعته**).

(**أرشدكَ**) أي: جعلك من أهل الرشاد ضد الغواية، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ عن نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢)**﴾[النجم:٠٢]، الضلال ضده الهداية، والغواية ضدها الرشاد، وقوله: ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢)**﴾ أي أنه سالم من الضلال والغواية، وذلك بأنه اجتمع له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كمال العلم النافع والعمل الصالح، وقد قال نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذكر الخلفاء الراشدين: ((**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**))[(١)] جمع لهم بين هاتين الخصلتين، وهما تعنيان صلاح علم الإنسان وصلاح عمله؛ الهداية صلاح العلم والرشاد صلاح العمل.

قال: (**أرشدكَ اللهُ لطاعته**) أي جعلك من أهل الرشاد الذين هم عالمون بالطاعة عاملون بها محافظون عليها.

(**أنّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم أن تعبد الله [وحده] مخلصًا له الدين**) هٰذا الأمر الذي دعا رحمه الله الانتباه إلى ضبطه والعلم به ومعرفته (**أنّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم أن تعبد الله [وحده] مخلصًا له الدين**) هٰذه الحنيفية التي هي ملة أبينا إبراهيم خليل الرحمٰن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)**﴾[نوح:١٢٣]، فملة إبراهيم التي أُمرنا باتباعها هي الحنيفية، وتأمل الآية قال: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ فالدين الذي أُمرنا باتباعه ولزومه هو الحنيفية ملة إبراهيم، ولهذا متأكدا على كل مسلم أن يعرف الحنيفية ما هي، لأنا أمرنا باتباعها ولزومها والتمسك بها والمحافظة عليها وأن نكون من أهلها، قال: (**اعلمْ.. أنّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم أن تعبد الله [وحده] مخلصًا له الدين**) هٰذه الحنيفية التي هي ملة إبراهيم هي أن تعبد الله مخلصا له الدين، ولهذا لا يكون الإنسان حنيفا إلا إذا كان مخلصا، لا يكون

---

(١) **سنن الترمذي**: كتاب العلم عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث رقم (٢٦٧٦). وقال: حسن صحيح.

سنن أبي داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم (٤٦٠٧) .

سنن ابن ماجه: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث رقم (٤٢، ٤٣).

قال الشيخ الألباني: صحيح.

مسند أحمد (تحقيق أحمد شاكر وحمزة الزين): حديث العرباض بن سارية، حديث رقم (١٧٠٧٩).

حنيفا إذا كان مخلصا ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء﴾[البينة:٥]، لا يكون من الحنفاء -والحنفاء هو جمع حنيف- لا يكون كذلك إلا إذا كان مخلصا دينه لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، لا كون كذلك لا يكون حنيفا، والحنف أصله في اللغة الميل، والمراد هنا الميل عن الباطل والعدول عن الباطل إلى الحق والهدى والتوحيد والاستقامة، مائلا عن الشرك إلى التوحيد وعن الضلال إلى الهدى وعن الباطل إلى الحق وعن الغواية إلى الرشاد لهٰذا هو الحنيف. قال: (**الحنيفيّة ملّة إبراهيم أن تعبد الله [وحده] مخلصًا له الدين**) وقوله: (**أن تعبد الله [وحده] مخلصًا له الدين**) لهٰذا هو التوحيد الذي خلقنا لأجله ووجدنا لتحقيقه، ولهذا قال المصنف رحمه الله: (**كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾**[الذاريات:٥٦].) فالتوحيد الذي خلق الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه هو أن يعبدوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ مخلصين له الدين، ولهٰذا يتطلب منك أن تعرف:

أولا العبادة ما هي، ما حقيقتها، ما أفرادها.

ويتطلّب منك ثانيا أن تجعلها كلها لله، لا تجعل لأحد منها شيئا.

يتطلب منك أن تعرف العبادة التي خُلقت لأجلها ووجدت لتحقيقها.

ويتطلب منك أن تجعل العبادة كلها لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- لا تجعل لأحد أيا كان ومهما كان لا تجعل لها حضا ولا نصيبا، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، ولا لغيرهما، فالعبادة حق لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

قال: (**أن تعبد الله مخلصًا**) ومعنى (**مخلصا**) اي أن تكون عبادتك لله خالصة، ومعنى خالصة، أي صافية نقية، ليس فيها شائبة شرك ولا رياء ولا نحو ذلك؛ بل هي صافة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

وإذا أردت أن تعرف معنى الإخلاص في لغة العرب فاقرأ قول الله تَعَالىٰ في سورة النحل سورة النعم اقرأ قوله جل وعلا ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)**﴾[النحل:٦٦]، ﴿**خَالِصًا**﴾ أي صافيا نقيا، الخالص في اللغة الصافي النقي، وقد وصف ربنا جل وعلا اللبن الذي يخرج من بهيمة الأنعام بأنه خالص؛ أي صافي نقي، ذكر تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ أنه أخرجه من بين فرث ودم، ذكر جل وعلا أنه أخرج هٰذا اللبن من بين فرث ودم، خرج اللبن من بين الفرث والدم لكنه خرج خالصا؛ أي صافيا نقيا، لا ترى فيه نقطة دم ولا قطعة فرث، مع أنه خرج من بين فرث ودم، فيخرج خالصا أي صافيا نقيا، ويخرج أيضا سائغا للشاربين، مع أنهم علموا مخرجه، علموا من أين خرج؛ لكنه سائغ لهم أي يشربونه بتلذذ وهناءة وتطعم له وحب له مع أنهم يعلمون من أي خرج، فهٰذه الآية تبين لك معنى الخالص في لغة العرب. وقوله: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا**

﴿اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة:٥]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٣]، أي: الصافي النقي، ولهذا العبادة لا تكون مقبولة من العبد إلا إذا كانت لله خالصة، العبادة لا تكون مقبولة من العبد إلا إذا كانت لله خالصة، ومعنى خالصة أي صافية نقية لم يُرد بها إلا الله جل وعلا، ولهذا إذا خالط العبادة نية أخرى فإنها تخرج عن الإخلاص، وإذا خرجت عن الإخلاص لم تقبل، ولهذا قال ربنا عز وجل في الحديث القدسي: ((**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**))[1] أي أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ لا يقبل العمل إلا إذا كان صافيا نقيا خالصا، لم يُرد به إلا الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ-.

قال: (**كما قال تعالى:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].) ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ الخلق فعله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ﴾ أي: لم أوجد الثقلين من العدم إلا لغاية بيّنها سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ بقوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وغيره أن كل أمر بالعبادة في القرآن أمر بالتوحيد، فمعنى قوله ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليوحدون في العبادة، ليخصوني بالعبادة، لا يعبدوا معي غيري، ليفردوني في العبادة، قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ قوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادة فعل العبد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ جعل في العبد مشيئة، وهداه النجدين طريق الحق وطريق الضلال، قال تَعَالىٰ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾[النحل:٣٦]، فقوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليقوموا بعبادتي، لهذا الذي خلقهم لأجله.

لكن هل كلهم فعلوا الذي خلق له؟ الجواب: لا، ولهذا قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾[النحل:٣٦].

قال: (**فإذا عرفت أنّ الله خلقك لعبادته فاعلم: أنّ العبادة لا تسمّى عبادة إلا مع التوحيد**) ولهذا أصل لابد أن يعرفه كل مسلم، العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، ولهذا نقلت لكم عن ابن عباس أنه قال: كل أمر بالعبادة أمر بالتوحيد. لأن العبادة لا تكون عبادة إلا بالتوحيد، العبادة إذا دخلها إرادة غير الله وإشراك غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ معه في العبادة ماذا تكون؟ هل هي العبادة خلق الله الخلق لأجلها. قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، لهذه العبادة التي خلق الله عز وجل الخلق لأجلها هل هي تلك الأعمال التي يمارسها كثير من الناس يسألون الله ويسألون

([1]) **مسلم**: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم (٢٩٨٥).

الأحجار، ويعبدون الله ويعبدون القباب والأحجار والأشجار وغيرها، هل هٰذا هو الذي خلقوا لأجله؟ هل هٰذا المعني بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ حاشا وكلا، هٰذا ليس عبادة، وإنما هو شرك، ولهذا العبادة لا تكون عبادة لا مع التوحيد، ونظّر لذلك -رحمه الله- بمثال يوضح ذلك قال: (**اعلم: أنّ العبادة لا تسمّى عبادة إلا مع التوحيد، كما أنّ الصلاة لا تسمّى صلاةً إلا مع الطّهارة**) لو أن إنسانا صلى؛ ركع وسجد وأتى بأعمال الصلاة من أولها إلى آخرها؛ لكنه على غير طهارة هل يقال له: صليت أو يقال له: لم تصل؟ ارجع فصل فإنك لم تصل؛ أي لم تصل الصلاة التي أُمرت بها وطُلبت منك، قال: ارجع فصلّ فإنك لم تصل، فالذي يصلي بغير طهارة كأنه ما صلى، صلاته وجودها وعدمها سواء؛ لأن الصلاة لا تكون صلاة إلا مع الطهارة، والعبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، فإذا كانت العبادة قائمة على التوحيد كانت عبادة صحيحة مقبولة، فإذا كانت العبادة ولو كانت كثيرة أمضى فيها حياته ودهره، إذا لم تكن قائمة مع التوحيد فإنها تذهب سدى وتضيع هباء منثورا ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤]، فهٰذا أصل عظيم يجب على كل مسلم أن يضبطه، العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاة إلا بالطهارة، فمن عبد الله بغير التوحيد فهو مشرك بالله لا يقبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ منه عبادته، ومن عبد الله عز وجل بالصلاة من غير طهارة لم يقبل الله منه صلاته، وجود الصلاة وعدمها سواء، فهٰذا أصل عظيم يجب على كل مسلم أن يضبطه وأن يعتني به، العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد؛ وهٰذا يعني أن يتعرف العبادة ما هي، والأمر الثاني -ذكرناه قبل قليل- أن تجعلها كلها لله؛ لماذا؟ لأن الإنسان لو جعل لغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ شيئا من العبادة ولو شيئا قليلا أبطل دينه كله، لماذا يبطل دينه كله؟ لأن العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، فإذا جُعل مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ شريك في العبادة ولو في شيء قليل منها، أبطل العبادة كلها، والشِّرك في العبادة مثل السم في الطعام، إذا وضع السم في بعض الطعام أفسد الطعام كله وأتلفه أجمعه، ومن الذي يقبل طعاما وُضع في بعضه سما، السّم يسري في الطعام له ويفسده كله، العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد بأن يكون العبد موحدا لله جل وعلا مخلصا في عبادته كلها، وهٰذا يعني أن تكون صلاتك لله، حجك لله، ذبحك لله، نذرك لله، دعاؤك تتوجه به إلى الله، توكلك على الله، رجاؤك من الله، خوفك من الله، كل العبادات لا تصرف شيئا منها إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء﴾[البينة:٥]، ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٣] ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ

اللَّهِ أَحَدًا (١٨)﴾[الجن:١٨]، والآيات في هٰذا المعنى كثيرة جدا.

قال: (**فإذا دخل الشرك في العبادة فسدتْ كالحدَث إذا دخل في الطهارة.**) الإنسان إذا كان على طهارة توضأ وأصبح طاهرا، ثم أحدث هل تبقى طهارته على ما هي عليه وقد أحدث؟ الجواب: لا، والشرك إذا دخل في العبادة أفسدها مثل الحدث إذا دخل على الطاهر فإنه يفسد طهارته ويحتاج أن يتطهر من جديد، وهٰذا الشبه بين الطهارة من الحدث والطهارة من الشرك جاء الإشارة إليه في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)**﴾[المدثر:٠٤]، قيل في معناها: طهر نفسك من الشرك ومما ينقض الدين ويفسد الإيمان. وقيل في معناها: طهر ثيابك من النجاسة الحسية، (طهر ثيابك) يتناول الطهارة المعنوية والطهارة الحسية ﴿**رَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)**﴾[المدثر:٣-٥]، أي الأصنام وعبادة غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، قال: (**فإذا دخل الشرك في العبادة فسدتْ كالحدَث إذا دخل في الطهارة.**) المثال الذي ذكره المصنف يجلي هٰذا لأمر تجلية واضحة، من الذي يعرف مكانة الطهارة في الصلاة ثم يقدم على أن يصلي وعليه حدث؟ اسأل عامة المصلين، اسأل من يصلي وقد عرف أن صلاته لا تقبل إلا بالطهارة، هل من عرف ذلك إذا توجه للمسجد ثم أحدث وهو في الطريق هل يستمر في السير إلى المسجد، أو يبحث عن كان يتطهر فيه ثم يدخل ليصلي طاهرا، هٰذا أمر معروف، الأمر تماما في باب العبادة، العبادة لا تكون عبادة مقبولة إلا إذا خلصت ونُقِّيت وسلمت من الشرك، فإذا دخل الشرك في العبادة أفسد العبادة وأتلفها.

قال: (**فإذا عرفتَ أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من [المخلدين] في النار عرفتَ أنّ أهمّ ما عليك: معرفة ذلك**) أي معرفة الشرك، لماذا تعرفه؟ الشرك عرفنا أنه إذا دخل في العبادة أفسدها، جعلها حابطة باطلة غير مقبولة.

إذن يجب أن نعرف الشرك أو لا يجب؟ يجب علينا أن نعرف الشرك من أجل أن ننقي عبادتنا لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ منه ونصفيها منه ونجعلها خالصة ليس فيها شيء من الشرك.

فإذن يجب على كل مسلم أن يعرف الشرك من أجل أن يحذره:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه فإن من لم يعرف الشر من الناس يقع فيه

وإذا لم يعرف الإنسان الشرك وحقيقته ربما دخل الشرك في جوانب من عبادته فأفسدها وهو في قرارة نفسه لا يزال ين أنه من أهل التوحيد ولا إله إلا الله وبينما قد أدخل على نفسه أنواعا من الشرك تفسد عليه عمله وعبادته وتحبط دينه، ولهذا كان واجبا على كل مسلم أن يعرف الشرك من أجل أن يحذر الشرك، أن يكون خائفا على نفسه من الوقع في الشرك، وتأمل دعوة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ

الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٥-٣٦].

فإذن يجب على المسلم أن يعرف الشرك من أجل أن يحذره، كما أنه يجب أن يعرف التوحيد من أجل أن يحققه، ويكون من أهله.

قال: (فإذا عرفتَ أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار)، قوله: (أحبط العمل) يدل عليه قول الله في القرآن: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي وحده ﴿وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ(٦٦)﴾[الزمر:٦٥-٦٦]، فالعبادة فالشرك إذا دخل العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من المخلدين في النار لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾[النساء:١١٦،٤٨].

(عرفت أن أهم ما عليك: معرفة ذلك) أي معرفة الشرك لتوقيه، معرفة التوحيد لتحقيقه، قال: (لعلّ الله أن يخلّصك من هٰذه الشَّبَكة) وانظر هٰذا الوصف العجيب للشرك قال: (لعلّ الله أن يخلّصك من هٰذه الشَّبَكة) الشرك شبكة، وأنتم تعرفون أن الشبكة لها خيوط، لها خيوط كثيرة ممتدة الأطراف هنا وهناك، وإذا لامس الإنسان شيئا من خيوط هٰذه الشبكة ابتلي بها وأمسكته وصار من أهلها، ولهذا الشرك شبكة له فروع كثيرة، له أنواع كثيرة، له أبواب عديدة، فإذا عرفت أن الشرك أخطر شيء وأنه إذا دخل العبادة وأفسدها وأبطلها وجب عليك على معرفة بالشرك حتى تكون منه على حذر وتوقٍّ وبعد عنه.

وأيضا هنا يفيدك هٰذا التعبير من المصنف بقوله: (هٰذه الشبكة) أن الشرك له مجالات كثيرة وجوانب عديدة من خلالها يُصطاد الناس ويخرجون عن الإخلاص والصفاء في العبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ إلى الوقوع في شبكة الشرك والعياذ بالله.

قال: (لعلّ الله أن يخلّصك من هٰذه الشَّبَكة)، قوله رحمه الله: (لعلّ الله أن يخلّصك من هٰذه الشَّبَكة، وهي الشرك بالله) يتطلّب منك كما قدمت وأعيد ذلك لأهميته:

أن تعرف الشرك.

وأن تكون عليه من حذر.

وأن تسأل الله عز وجل أن يعيذك منه.

وقد جاء في دعاء عظيم علمه النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أصحابه عندما قال لهم: ((**للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل**))، ثم قال: ((**ألا أخبركم بشيء إذا قلتموه أذهب الله عنكم قليل الشرك وكثيره؟**))، قالوا: بلى. قال: ((**تقولون: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم**)) فيدعو الإنسان ربه جل وعلا أن يخلصه من الشرك ويعرف الشرك ويكون منه على حذر، قال: (**وهي الشرك بالله الذي قال الله تَعَالىٰ فيه: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾**[1]) ولهذه وردت في موضعين من سورة النساء، وقد توعد تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ المشرك الذي يموت على الشرك ويلقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ مشركا بأنه لا يغفر له؛ بل يعذبه في النار ويخلده فيها أبد الآباد، ولا مطمع له في رحمة الله أبدا إذا مات على الشرك بالله جل وعلا، ولهذا قال الله تَعَالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦)**﴾[فاطر:٣٦]، فالكافر والمشرك يدخل يوم النار ويخلَّد فيها أبد الآباد، ولا يخفف عنه من عذابها، لا يخفف العذاب؛ بل إنه يزيد، ولهذا قال جل وعلا في سورة النبأ: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا (٣٠)**﴾[النبأ:٣٠]، ولهذا قال بعض المفسرين: إن أشد آية على أهل النار هي قول الله تَعَالىٰ: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾ لأنهم عندما يدخلون النار لا يزالون عندهم بعض الآمال، من الآمال أن يعادوا إلى الدنيا مرة ثانية: ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾[فاطر:٣٧]، من الآمال أن يقضى عليهم فيموتوا ويسلموا من هذا العذاب ومن هذه الشدائد، هذه من الآمال. ومن الآمال أن يخفف عنهم العذاب ولو قليلا، ثم يأتيهم هذا الأمر الذي يقطع عليهم كل الآمال ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾ أي لن تنالوا في النار إلا زيادة العذاب، لا ينقطع ولا يخفف ولا يقضى على أهله، فيموتوا بل لا يزالون في العذاب أبد الآباد مخلدين في نار جهنم أجارنا الله وأجاركم ووقانا ووقاكم.

فإذن يجب على العبد أن يكون على غاية الحذر من هذا الشرك الذي هو أخطر أمر وأعظم أمر نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ عباده عنه، ولهذا أول أمر يصادفك في القرآن هو الأمر في العبادة، وأول نهي يصادفك في القرآن هو النهي عن الشرك ﴿**فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)**﴾[البقرة:٢٢]، هذا أول شيء نهى الله عنه في القرآن الكريم.

ثم قال رحمه الله: (**وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه.**) وانتبه لقوله: (**ذكرها الله تعالى في كتابه**) لتعلم من خلال لذلك أن الرجل -رحمة الله عليه- لا يأتي بشيء من نفسه، لا يتكلف

---

[1] سورة: النساء (٤٨، ١١٦).

شيئا من نفسه، وإنما يجمع للناس ما جاء في القرآن وما جاء في سنة النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، قال: (**وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه.**)، ثم ذكرها قاعدة قاعدة، وذاكرا مع كل قاعدة دليلها وشاهدها من كتاب الله عز وجل، وهي قواعد عظيمة جليلة كبيرة ينبغي على كل مسلم ومسلمة أن يحفظها، ولعل أعظم هدية يقدمها من حج لإخوانه وجيرانه ورفقائه أن يعرف هٰذه القواعد معرفة جيدة ويقدمها للجار وللقريب وللصديق وللحبيب وللرفيق أعظم ما يقدم له هٰذه القواعد العظام الكبار التي دل عليها كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والحديث صلة إن شاء الله، ونسأل الله عز وجل أن ينفعنا أجمعين بما علمنا وأن يفقهنا في ديننا، وأن يصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ غفور رحيم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

﴿﴿◊﴾﴾